

اللغة الإنسانية

نشأتها، فلسفتها، مفهوما، تطورها

الأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح - جامع الأزهر

واللغة : فى اللغة : فعلة ، من « لغوت » أى تكلمت وأصلها لغة ككرة وقلة وثبة كلها لاماتها واوات، لقولهم : كروت بالكرة وقلوت بالقللة ، ولان ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب .

وقالوا فيها : لغات ولغون ككرات وكرون وقيل منها : لغى يلغى ، اذا هذى قال :

ورب اسراب حجيج كظم
عن اللغا ورفث التكلم

وكذلك اللغو قال الله سبحانه وتعالى « واذا مروا باللغو مروا كراما » أى بالباطل . وفى الحديث من قال فى الجمعة صه فقد لغا : أى تكلم (2) .

واللغة : فى اصطلاح اهل اللغة : أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وهذا التعريف يشمل معناها الخاص .

أما معناها العام فهو : مجموعة الوسائل المعبر بها عن المعاني والدالة على نفس المعاني لدى الآخرين سواء كانت تلك الوسائل فطرية أم اصطلاحية (3) .

وقد يصعب على الباحث معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة ؟

الا اننا لا نعدو الصواب ، اذا قلنا : انها بدأت عند ما تكونت أول جماعة انسانية فى هذا الوجود ، ولا نعدو الصواب أيضا ، اذا قلنا ان الجماعة الانسانية الأولى ايا كان طابعها - عندما تكونت أصبحت معها

اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة بنى الانسان ، لان الله خلق هذا النوع اضعف قوة من كثير من انواع الحيوانات الأخرى ، التي تعيش معه على الأرض ولكن الله عوض الانسان عن قوة الجسم والسلاح ، قوة العقل ومنحه الاستعداد للتفاهم والكلام .

فدعا بعض افراد الانسان بعضا للتفاهم والتعاون على اتقاء عادية الحيوان وعلى جلب المنافع وتحصيل المرافق ، واضطره ذلك الى سكنى المدن وانشاء المجتمعات ، ولذلك قال فلاسفة الاجتماع « الانسان مدني بطبعه » أى انه مضطر الى سكنى المدن ، وانشاء المجتمعات - ليتم فيها التعاون والتبادل والقدرة على استغلال ما اعد له فى هذه الدنيا من مقومات حياته .

وكانت اللغة هي : الاداة التي تكشف لبعض الافراد عما فى نفوس الآخرين وقد كان التفاهم الانسانى فى أول الامر بالإشارات التي لا يزال بعضها فى لغة الجماعات البدائية والتي تظهر فى الطفل قبل أن يتعلم الكلام ثم حصل التفاهم بالأصوات التي تألفت منها الكلمات فى اللغات المختلفة (1) .

فاللغات : أصلا : أصوات وليست كلمات وأن الكلمة صوت يرمز الى معنى وكتابة الكلمة رسم يرمز الى هذا الصوت ، والصوت : هو الاصل والصوت يصنعه الهواء يخرج من رئة الانسان وتقوم الحنجرة ويقوم اللسان ويقوم الفم وحتى الانف بإعطائه شكلا خاصا . هو الكلمة المسموعة .

مشاكلها الخاصة الناتجة عن علاقات الافراد بعضهم ببعض والناتجة عن علاقة الانسان بالبيئة والطبيعة ، وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها : تولد النشاط الانساني في استخدام الصوت ، لتكوين الفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الاصوات بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي ، عن طريق الاذن .

تجسد هذا النشاط الانساني المتميز عن كائنات الطبيعة الاخرى في صيحات موسيقية توحى بمعان سحرية ، تختلف في دلالتها باختلاف موسيقاها ، بذلك تكون العنصر الاساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده ، فاللغة بظهورها - كمرحلة عليا في مجريات التطور - خارجة خروجاً تلقائياً من صور سبقتها للنشاط الحيواني كان رد فعلها الحتمي : هو تحويل تلك الصور والضروب التي كان السلوك الجماعي يجرى على غرارها يضيف بعداً جديداً ، الى ابعاد الخبرة الانسانية ما نطلق عليه : انسانية الوجود ، فالتعبير الرمزي عن الاشياء ، يحولها من اشياء قائمة بذاتها منفصلة عن الوجود الانساني الى جزء من هذا الوجود .

فمثلاً : تسمية الساق الخشبية المُنْبَثِقَة من الارض والمنتبهة بأفروع ووريقات خضراء ، بلفظ شجرة هو بمثابة اذابتها في الوجود الانساني ، تقع تحت سيطرته وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسميه الشيء اي اطلاق لفظ لغوي عليه هو الخطوة الاولى للسيطرة على وجوده ومزجه بالوجود الانساني بعد المعرفة السابقة له ، كشيء منفصل عن هذا الوجود . والقوة في التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوي عليه تكمن في انبثاق مواضيع من هذا الرمز لا تمت للشيء المرموز به اصلاً ، بصلة مباشرة وان كان هذا لا يتم الا بعد عدة مراحل من التطور اللغوي ، ومن هنا يتبين الفرق الاساسي بين التعبير الرمزي عن الاشياء والانفعال برسمها ، والتعبير الحركي - الرقص - الذي من الصعب ان يتولد عنه شيء آخر بخلاف اللفظ اللغوي الذي يملك تلك الامكانية ، وليست على هذا الاساس البيئة التي يحيا فيها الانسان يعمل ويبحث ، « مادية » فقط بل ثقافية كذلك فافعال الانسان وكيفية آدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والانسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبثق في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والاهداف والمعتقدات

التي تحملها الالفاظ اللغوية في طيها وتوحى بها ، والمشكلات التي تبعث على التقصي والبحث انما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ولا تقتصر الاعضاء التي تختص بهذه العلاقات على العين والاذن ، واللسان ، بل من ادواتها كذلك تلك المعاني المتطورة على مر الحياة مضافا اليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة اذن : في مركب العناصر التي يتألف منها المحيط الثقافي للانسان مكاناً ذا دلالة خاصة وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة ايضاً فهي في حد ذاتها نظام ثقافي وان شئت بعبارة ادق فقل هي :

أ - الاداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك النظم الاخرى والعادات المكتسبة .

ب - والالفاظ التي تتغلفل خلال الصور ومضموناتها في آن واحد معا اعني الانظمة الثقافية الاخرى ومضموناتها .

ج - وتتميز بتركيب خاص بهالة قابلية التجريد باعتبار اللغة « صورة » من الصور ولهذا التركيب اذا ما تجرد في صورة تأثير حاسم من الوجهة التاريخية .

واللغة التي جاءت بهذا الوضع هي اللغة بأوسع ما اريد لها من معنى ، فاللغة في هذا المعنى المتوسع هي الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى ، وعن طريقها تنتقل وهي ذلك التدوين الذي يديم بقاء الحوادث ويجعلها في متناول الناس عامة ليحثها من جديد ، ومن جهة اخرى فان الافكار او المعاني لا وجود لها الا في رموز يستحيل فهمها ، دون الرجوع اليها مرة ثانية وبذلك تشكل الرموز نوعاً من البقاء الضروري لوجود الاشياء المرموز اليها ، بعد ان كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي .

ومن هذا يتبين ان علاقات العالم النفساني والعالم الخارجي تنسجم في التمايز المختلفة ، توجد بوجودها وتنعدم بانعدامها ، انها شرط وعلة لها وبما ان الموضوع والذات ، اي المفعول والفاعل يلتقيان في الشعور الفردي ليتحققا كان لزاماً على الدراسات النفسية ، ان تبدأ بالعرف على حقيقة التعبير واصنافه .

فاللغة : فن تقني « لان لها نماذج وقواعد متفقاً عليها » ولكن حقيقتها تندمج في حقيقة تاريخية : التاريخ الفكري والنفساني والصناعي والجغرافي

للأمة أو للامم المتكلمة بهذه اللغة . ونقصد هنا بالتاريخ الماضي طبعاً ، ولكنه ماضٍ يسترسل في الحاضر مع التأكيد بأن الحاضر لا ينحصر في الحال بل هو ما يعبر عنه النحويون « بالمضارع » أي الحال والمستقبل لأن ما يقوم به الإنسان في الحاضر إنما هو إنجاز لما يريد أن يكون عليه ما بعد الحاضر فالمستقبل ليس مرادفاً للبعد ، كما أن الحاضر ليس منحصرًا فيما قد حضر ، فحاضر ليس وصفاً لحالة بل اسم فاعل أي أنه الزمن الذي يقع فيه فعل فعلياً .

فالحاضر يختلف عن الماضي لأن الماضي قد انتهى كحركة مباشرة ولم يبق إلا في إشارة أو في ذاكرة ويخالف أيضاً المستقبل لأن المستقبل يصوب اتجاهه نحو الامام ويتقصد الآمال .

فالمتكلم يغير اللغة ولكنه يخضع لأسسها ومصطلحاتها كي يفهم ، فالكلام أداة للتفاهم لا غاية في ذاته ، أن المتكلم يرمي من وراء الكلام أن يفهم المستمع أنه يريد تواسلاً .

لكن خلافاً لما يمكن أن نظنه أن الإنسان الأول لم يتكلم ليعبر عن مفاهيم وافكار ولم يتكلم لأنه كان له شيء يجب أن يقال بل على العكس لقد فهم وفكر وأفهم لأنه تحدث حيث أن ما راج في خاطره قبل أن يتكلم لم يكن في شكل أولي يرمي إلى قصد وإني له أن يقصد الانهم قبل أن يحصل عنده فهم هو نفسه ؟

أن التفكير واللغة : وجهان لواقع واحد ، أن الجد الأول للإنسان لم يعبر عما فكر فيه لأنه كان يفكر بل فكر لأنه تكلم وهو لم يتحدث إلا بعد أن انتهى من الحركة ، فللافعال أي ما يقابل الأسماء الاسبقية والمكان الأول والأفعال آخر ما يضيع من الذاكرة ، أن اللعب وهو عمل جماعي من أول الحركات التي يقوم بها الطفل فكل لعب في الحقيقة ملاعبة ، وأداة اللعب بالنسبة للصبي غالباً ما تكون : هو من يلعب معه من أقرانه أو من الكبار ، فالارتباط الأولي بين الصبي وعالم الأحياء هو الثدي وعند الفطام تلهيه بشدي لا لبن له أو بأشياء جامدة . فاللعب عالم مصطنع بين الواقع واللاواقع أي حركات رامزة يتعدى الرمز عند الطفل دور الوساطة ويصبح غاية في ذاته ، نعني أن الرمز في الشعور كأنه الواقع ويصير الواقع شيئاً أجنبياً (5) .

وأن أول أداة للتعبير اخترعها الإنسان هي الآلة مثل : الحجر والعصا وهذه الأدوات أن هي إلا أفعال مجسمة : فالمفعول شيء مشترك بين الإنسان

والحيوان ، يقلع « الشمبانزي » غصنا من الشجرة ليستعمله كما يستعمل الإنسان : العصا ، لكن الفرق هنا هو أن القرد يستعمل آتله في الحالة الحاضرة في حين أن الإنسان يخلق بينه وبين الآلة صلات يملكها فيقول : هي لي . هي لك . هي لنا . فيدخرها ثم ينقحها ويطورها ومن هنا يكسبها معاني جديدة وكرد فعل لذلك تكسبه هي بدورها كلمات جديدة أفعالا وأسماء « فهناك « ديبالتيك » للتطور الإنساني في علاقاته بالأدوات ، يؤثر بها ثم فيها ، وهي بدورها تؤثر فيه ، فالإنسان يتطور بقدر ما يطور أدوات العمل .

فالإنسان يمتاز عن الحيوان في علاقاته بالآلات في كونه يستعملها ، وقد استعملها أمس واستعملها الآن ، ويحتفظ بها لما بعد وبمجرد ما أصبحت الآلة صاحبة للإنسان متصلة بالتاريخ تكونت حولها ، عادات جماعية نعني أعرافاً تقنية تتوارثها الأجيال « صنع الآلة وكيفية استعمالها وإصلاحها » والاستعمال مجموعة عمليات تنشأ عنها نتائج يرجوها العامل لفائدة مباشرة أو للمبادلة أي الآلة أول واسطة بين الإنسان والعالم ، بين الإنسان والمجتمع ، فاللغة لا تنتمى إلا في البيئات الفنية بالآلات ، بالأشياء المصنوعة والمكتشفة ، لأن كل لغة إنما هي أدوات حضارية وأن الجد الأول للإنسان ، قد استعمل العصا في الصيد ، وقلد صوت الحيوان ثم تلفظ بسميات للعصا وللصيد وللصوت وللطير ، فالحياء تدور حول أشباع الحاجيات ، هذا الأشباع يدفع إلى العمل والعمل يدفع إلى اكتشاف الآلات أو إلى صنعها ثم ترقيتها .

هكذا تكثر الاتصالات المجتمعة حول أعمال مشتركة فتتجلى مختلف التعابير من علامات وإشارات ولفات ورموز .

من هذا التحليل نصل إلى أصل المعرفة وأصل الأحداث التاريخية وأصل المجتمع الإنساني ، وبالتالي هنا : يبدأ التفكير الفلسفي : أن الفلسفة بطبيعتها وظيفتها تشتغل بمعرفة الإنسان والعالم وعلاقاتهما ، فهي تبحث فيهما ، والبحث حديث ، والحديث نقاش كلامي ، والإنسان هو الحيوان الذي يتكلم أي يصنع العالم بالألفاظ فتصبح كل لفظة أما مفتاحاً لفهم أو أداة مواصلة واتجاه وأما تحديداً لسلوك فردي أو جماعي ، فالكلمات كالأوراق النقدية والأسلحة أو الخاتم السحري « يكفيه أن ينطق ليحدث شيئاً في شعوره ورد فعل في شعور الآخرين ومن هذا التجاوب

الشعوري ينتج صدى ، يحرك الطبيعة الخارجية .
فالكلام خلاق ، ان الكلمة الواحدة تحدث احيانا فسادا
واحيانا اصلاحا ، واذا لم يتسبب عنها شيء محسوس
عند المتكلم ، ربما حصل ذلك عند المستمعين او عند
متكلم آخر مرة اخرى فالكلمة كالدرهم الذي يحتفظ
بقيمتها التداولية ، سواء انتقل الى بائع والى مشتر
او لم ينتقل ، « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة
طيبة » فالبحث فى الكلمات من حيث تركيبها المادي،
ومدلولاتها المحسوسة وآثارها النفسانية : يلتقي فى
ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الانسان وحول
المعرفة ومن هنا كان التأمل فى اللغة فلسفة وعلم
وبما ان اللغة حركات وعلامات واشارات ورموز ،
اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم اداة للتعبير هكذا نرى
اللغة فى نفس الوقت مادة للبحث واداة له اذ انها
تأمل بنعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئا خاصا بفرد بل ملكا مشتركا
انها « بين » بين المرء وشعوره وبين الشعور كحالات
واحساسات وبين ابرازها كاحداث ، بين المعنويات
والماديات ، بين الانا والآخرين ، بين الانسان والعالم .

اللغة هي الوسطة العظمى والصفوى ، فى
الغيب والحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما
سيكون .

اللغة تعبير « الانا » ونداء للآخرين اي دعوة
ودعاء فالمرء يعطي كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام امام
نفسه وامام المجتمع ، ويقيد سلوكه ، ويفرض عليه
مسئولية ، ورجل لا كلمة له رجل ينقصه الضمير نعني
ان انسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة
التعبير الى مستوى العناصر « الانطولوجية » وربما
استطعنا ان نقول : الانسان جسم وروح ولغة (6) .

بعد هذه الفذلكة الفلسفية فى الكلمة والمفهوم
والتعبير ، نعود الى جوانب هامة من اللغة لها ثقلها فى
الموضوع فاذا اردنا ان نعرف اهداف اللغة المكتوبة
والتكلم بها قال عنها ابن جنى فى الخصائص
والجرجاني فى التعريفات : انها اصوات يعبر بها كل
قوم عن اغراضهم وجدنا انها :

1 - اداة التفكير الانساني فالقاموس اللغوي الذاتي
يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 - تقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الانسان كوجود
مستقل ، ويتجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين احدهما:

الى خارج ذات الانسان يقوم بعملية نقل الافكار
والمشاعر ، والاخر الى داخل ذات الانسان حيث
يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمحصلة لهذين
الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الانسان ينشأ الهدف
الثالث وهو الهدف الاجتماعي والترابط الانساني
والتفاهم البشري (7) .

وقد لخص العالم العلامة « اولبرت » وظائف
اللغة الاجتماعية فقال :

1 - انها تجعل للمعارف والافكار البشرية قيما
اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد
الدلالة على افكاره وتجاريه .

2 - وانها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد
الاجتماعية جيلا بعد جيل .

3 - وانها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على
تكييف سلوكه ، وضبطه حتى يلائم هذا
السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 - وانها تزود الفرد بأدوات التفكير وما كان
المجتمع البشري البصير الى ما هو عليه الآن بدون
التعاون الفكري لتنظيم حياته . ولا يتأتى هذا التعاون
الفكري الا بالتفاهم وتبادل الافكار بين افراد المجتمع ،
والوسيلة العملية الميسورة لهذا التبادل والتفاهم
هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم الى مستوى
التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الاولى (8)

فاللغة اهم مظهر لوجود الجماعة - والمحافظة
على كيانها واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات
الحضارية نجد ان اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك
وحدات هذا المجتمع ، فوحدة القايات والمبادئ تدعو
الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال وعناصر
الوجود المختلفة تتجسد فى صورة لفظ واحد مشترك
يدل على هذا الشيء او الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ
اللغوي دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة افراد
مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع
انما تقع فى كونها من جهة ضربا من السلوك البيولوجي
الخصيص بأدق المعاني ناشئا تلقائيا من المناشئ
العضوية الاولى ، وفى كونها فى الوقت نفسه من جهة
اخرى تضطر الفرد الواحد من افراد الناس ، ان يلتزم
بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين وان ينظر الى الامور
وان يجري عليها البحث من زاوية لا تقتصر على
فردية الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم

التخصيص تبدو في وظيفة كل فرد بحيث لا يمكن أن يكون خبازا ونساجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هناك كان على الفرد ان يعتمد في اموره على غيره من اصحاب هذه المهن وان يتصل بهم ، لقضاء حاجاته ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ولا بد للتفاهم من لغة . ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا في حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني من وظيفة اللغة : وهو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية .

فان اللغة اصل وجذر لكل ما يمكن ان نصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك والدين المشترك والادب المشترك والفكر والاحساس والارادة والعمل المشترك اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، او دين بلا لغة او فكر بدونها او احساس لا يترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها او ارادة تقوم بغيرها ، او عمل يتحقق بعيدا عنها ، ان الشركة في كل اولئك هي الحياة الاجتماعية ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (11).

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من اهمية وخطورة بالغتين . وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي تتمكن بها من ادراك معنى الحياة وتوضح معالمها ونعت مظاهرها هي اللغة ، فمهمة اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تمكسه وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها وتنسيقها بحيث تصبح مطية للمعاني ، ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة وشارة للواقع .

فاللغة مجلّى للفكر وترجمان له (12). وهي سبيلنا الى استكشاف جواني الامة التي تتكلمها واستكناه خصائص روحها التي تكمن وراء برانيها (13) .

ومما يذكر ان انظار العلماء والباحثين اختلفت في تعريف جامع مانع للغة طبقا للمناهج التي يدرسونها . ولذلك نرى فريقا يعرفها على أساس عقلي او نفسي ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف الذي يقول ان اللغة استعمال رموز صوتية ، للتعبير

باعتبارهم شركاء او اطرافا متعاقدة وان شئت فهي مشروع مشترك - لا شك - قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الموجه ، والهدف لنشوء اللغة ، ولكن الذي لا شك فيه ايضا انها تهم اول ما تهم شخصا آخر هو المستمع او اشخاصا آخرين يوجه اليهم المتكلم الحديث فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (9) .

واذا اردنا ان نعرف اللغة تعريفا جامعا مانعا - كما يقول علماء المنطق والاصول - على ضوء تحديد ماهيتها فاننا نجد ذلك في منتهى الصعوبة ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مانع فسنجد اننا انتهينا الى نص لا يمكن ان يكون تعريفا ابدا لان تعدد مظاهر اللغة، من صوتية الى كتابية الى اشارية حركية الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين ، الى غير ذلك ، لا بد ان يفرض على نص التعريف الذي نحاوله ان يطول حتى لا يعود تعريفا اذ يصبح وصفا مسهبا لعدة امور كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك ان يلجأ العلماء في تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (10) .

وقد قال في محاولة التعريف بعض العلماء : ان اللغة وسيلة لايضاح الافكار وقد رد العالم « تاليران » على ذلك ، بأن اللغة وسيلة لاختفاء الافكار لا لايضاحها وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعترض على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم الى نفسه احيانا ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره اذ يكون قد عرفها فعلا وادركها ادراكا اعمق مما تستطيع كلماته ان تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد ، وصالح لان يكتف بالكييفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا ان نفسر كلام المرء الى نفسه وكلامه الى صاحبه .

وقال هنري دولاكروا : اللغة هي دالة الفكر .

والحقيقة ان اللغة في عمومها ذات وظيفة هامة جدا ، يمكن ان تلخص في امرين :

- (1) امر فردي : هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .
- (2) امر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية ، فاما بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة فواضح ان طبيعة

54

تعمقت اغوار النفس البشرية حتى صار عدد من الفاظ اللغة : عالما من الاشارات والرموز المعبرة عن ادق السعاني المجردة واعمقها (16) .

وشواهد الماضي وتجارب الحاضر في الشرق والغرب تثبت في وضوح ان اللغة على الاطلاق هي اقوى عوامل الوحدة والتضامن بين اهلها حتى لقد ذهب العالم اللغوي « ادوارد سابير » الى ان اللغة هي على الأرجح ، اعظم قوة من القوى التي تجعل الفرد كائنا اجتماعيا ، ومضمون هذا الرأي امران : الاول ان اتصال الناس بعضهم ببعض في المجتمع البشري ، لا يتيسر حصوله بدون اللغة . والاخر الثاني : ان وجود لغة مشتركة بين افراد قوم او امة من شأنه ان يكون هو نفسه رمزا ثابتا فريدا للتضامن بين افراد المتكلمين بها (17) .

وقال الفيلسوف « فشته » : ان اللغة تلازم الفرد في حياته وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخص رغباته وخطراته انها تجعل من الامة الناطقة بها كلاما متراسا خاضعا لقوانين . انها الرابطة الوحيدة الحقيقة بين عالم الاجسام وعالم الازدهان (18) .

ولنتعمق في مفهوم اللغة فاذا هي اهم واعز ما ملكته النفس البشرية من حيث جريانها في عروق الانسان مجرى الدم ، حتى ان كل تعدد حيالها يعتبر تعديا حيال الشخصية الانسانية ، وهناك من الفلاسفة علماء اجلاء حاولوا تفسير اللغة باصطلاحات فلسفية دقيقة فمن قائل : انها ليست الا مجموعة اختلقها الفكر البشري وامكن تعديلها حسب المبادئ الموضوعة من قبل وقد بذلت جهود جبارة في سبيل ابداع لغات مصطنعة الا انها باءت بالفشل كما شهد بذلك تاريخ الانسانية وكثير من علماء اللغة ، يرون ان نشأة اللغة وازدهارها راجع الى العواطف الانسانية وهذا هو الاقرب الى الصواب ، لان اول مدرسة يرى فيها الطفل هي : مدرسة الامومة وفيها يرضع الطفل من امه اللغة كما يمتص خصائصها الذاتية تماما بتمام .

ويمتاز لسان الانسان بقدرته على التعبير عن الاحاسيس والمشاعر تعبيرا ذا قوة ودلالة ، والفكر الانساني له الاهمية العظيمة في سبيل تقدم اللغة ونموها وازدهارها . فاللغة هي الصق الاشياء بالانسان واعسرهما انفكاكا عنه ، وهي الرابطة التي تربط بين انسان ومعاني الحياة والكون والمجتمع .

جاء في « الابنيسد (19) (*) » ان لم يكن النطق موجودا لم نهتد سبيلا الى معرفة الحق ولا الباطل ولا الصدق ولا الكذب ، ولا الفرح ولا السرور ، والفضل لفهمنا لمعنى هذه المظاهر وادراك مفهوم هذه المشاعر يرجع الى النطق ولذلك حق لنا ان نتبصر في النطق ونتمتع فيه (20) .

وقال العالم الهندي « همايون كبير » لعمري ان ذلك - النطق - من الالاء التي خصص الله بها الانسان دون سائر خلقه من انه يقدر على تحليل الموقف وتفكيكه ، فاقتباسه منه النتائج الممتعة ثم تطبيقها في ظروف اخرى ملائمة حيث دعت الحاجة الى ذلك . ولا شك ان معظم الفضل في ذلك عائد الى لسان الانسان ، وان التقدم في اللغة يدل على مدى التقدم الذي احرزه المجتمع او افراده ونخرج من كل هذا الى ان اساس اللغة ينبعث عن التأثيرات العاطفية وتقدمها وريقها ، ويرد الى التفسخ في الفكر وتغلب البشر العلمي على العالم ، الا انها قد تتسامى فتجاوز حدود العواطف والفكر كليهما ، حيث انها تنشئ رباطا يربطها فترتد وسيطا ومحيطا معا وهي ولا شك اوسع نطاقا وافصح مجالا فان الكل في مجموعه اوسع واكبر من اجزائه (21) فاللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات المجتمع اى مجتمع وهي مشروع مشترك قد يكون عنصر من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الموجة والهدف لنشوء اللغة واللغة تهم اول ما تهم شخصا آخر هو المستمع ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من اشتراك يربط بين المتكلم والمخاطب تصبح اللغة عامة وموضوعية .

واللغات في تصنيف بعض علمائها تنقسم على حسب الاجناس والسلالات التي تتكلمها ولكنه تقسيم يعتريه الاختلاط لاشتراك الامم في لغة واحدة او عائلة لغوية واحدة مع انتمائها الى اصول متباعدة وخير منه ان تقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين قواعدها ، وعوامل التصريف في مفرداتها وتراكيبها ، وهو تقسيم يضبط الفوارق يضبط كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل الفهم والاختيار وعوامل التقليد والاضطرار في تراكيبها وتعبيراتها .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين : الى لغات النحت ولغات التجميع ولغات الاشتقاق ، فلغات النحت هي التي تتكون فيها الاسماء والافعال والصفات

(*) الابنيسد : مجموعة كتب هندية في الفقه الهندوسي .

واكمل اللغات على سنة التطور والتقدم تلك اللغات التي انتظمت قواعدها الصوتية Phonologic وقواعدها الصرفية Morphologic وقواعد التركيب والعبارات .

ثم يضاف الى الظواهر الصوتية فى قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات اجمالا وفى المفردات على التعميم كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة وبين الصفات العارضة والصفات اللازمة وهي جميعا من المزايا التي تمت للغة العربية على مثال لم تسبقها اليه لغة من لغات الحضارة .

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل يثبت لها السبق على لغات الارتجال الجراف ، فى وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية ، او بالتكرار على غير قياس وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة وفى الاسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير ، وتعميمه على الاحداث والمعاني غير موقوف على اصوات الانفعال والمحاكاة ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وامكان الجمع بين الوضع الحقيقي والوضع المجازي فى كلام المتكلم لتوسيع المعاني وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات (22) .

وعلماء اللغات : صنفوا اللغات وبوبوها وحللوها فوجدوا بينها اشباها ، استطاعوا بناء عليها ان يصنفوها ثلاثة اصناف على قدر الامكان وهي صنوف ليست متميزة بعضها عن بعض كل التميز ، ولا متفصلة كل التفاصيل .

1 - الصنف الاول : اللغات العازلة : وهي لغات فيها الكلمة الواحدة غير متغيرة لا تشتق منها كلماتها : انها اسم وفعل وصفة وظرف ، فى آن واحد واكثر هذه اللغات كلماتها ذات مقطع واحد ، واكثرها عندها للكلمة الواحدة اكثر من صوت واحد ، تنطقها نغمة عالية او تنطقها نغمة منخفضة او تنطقها متطاولة او تنطقها متقاصرة ولكل من هذه الانغام للكلمة الواحدة معنى بذاته .

وتتعدد الانغام وتختلف ، فاللغة الصينية الكنتونية بها ست نغمات وكذا السيامية ، اما لغة برما فلها نغمتان . ومن اللغات العازلة Isolating اللغات الصينية التبتية ، ومن اللغات العازلة كثير من لغات افريقيا ، وهي تبلغ ما بين خمسمائة الى سبعمائة لغة .

بادخال المقاطع الصغيرة او الحاقها بها ، وتسمى لغات النحت احيانا باسم اللغات الفروية فى اصطلاح الاوربيين Agglutinating لان مفرداتها تلصق لهما لتنويع معانيها ، كما تلصق ادوات البناء بالفراء .

ولغات التجميع هي : اللغات التي تعتمد على اللصق كما تعتمد عليه اللغات الفروية ولكنها تعتمد قبل ذلك على « التنعيم » لتنويع المدلول ، والتمييز بين الصفات والظروف وبين الاوقات والاجناس ، وغيرها من معاني الجمع والتثنية والافراد وقد تسمى لغات التجميع احيانا باللغات المنفصلة Isolating لان الكلمة فيها تنفصل بصيغة واحدة لا تتغير حروفها وانما يتغير المعنى بضم صيغة منها ، الى صيغة اخرى بغير ترتيب متبع او بغير ترتيب يلتزم فى جميع الاحوال ومن فروع هذه اللغات ما تتكون اسماءه وافعاله من جملة تتألف من عدة مقاطع واجزاء وتسمى لذلك بلغات التركيب الكثير Polysynthetic اما لغات الاشتقاق فهي اللغات التي يعم فيها الفعل الثلاثي فى كل مادة وتجري قواعد الصرف فيها على المخالفة بين الاوزان بحسب معانيها ويكثر فيها اختلاف الحركة ، فى اواخر الكلمات اتباعا لموقعها من الجملة المفيدة .

ويشيع النحت فى اللغات الهندية الجرمانية كما يشيع التجميع فى اللغات المقولية ولغات القبائل الامريكية الاصلية ، اما الاشتقاق : فهو من خصائص اللغات السامية وتكاد اللغة العربية من بينها ان تنفرد بعموم الاشتقاق واطراده مع تحريك اواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة .

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هذه اللغات جميعا ولم تختص لغة دون سائرهما ومن هذه القواعد العامة ان الكلمات الانفعالية التقليدية ، اسبق من الكلمات الارادية الفكرية ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الانسان عفوا من الاصوات والصيحات التي تعبر عن الفرح او الغزع او الدهشة وما تكون الكلمة منه احيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopoeia كاسم البلبل والكوكو والفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها .

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجري فيه على القياس والاستعارة واطلاق القاعدة الواحدة على التشابهات لفظا او التشابهات لفظا ومعنى .

ومن اللغات الهندية الاوربية - وهي غير عازلة - لغات مالت الى هذا المزاج العازل بعض الشيء لا سيما الانجليزية ، مثال ذلك لفظ Light انه اسم وفعل وصفة : النور او ينير او منير ويفرق بين المعاني الثلاث موضع اللفظ من الجملة اى السياق .

2 - الصنف الثاني اللغات اللاصقة وهي التي تؤلف الكلمات فيها باللصق فيتغير معناها ويتبدل واللصق يكون باضافة مقطعين بعضا الى بعض فتكون كلمة لها معنى جديد، او قد تصنع الكلمة من أكثر من مقطعين . وهذا الصنف اللاصق Agglutinative من اللغات هو اكثر الصنوف الثلاثة فى اللغات عددا ، وهو يتضمن اللغة السومرية القديمة ولغة اورال والقوقاز واللغات الدريفيدية واليابانية والكورية ولغات المحيط الهادى واللغات الافريقية واللغات الوطنية لمواطنى امريكا الاصليين .

3 - الصنف الثالث : اللغات المتصرفة وهي اللغات التي تدخل كلماتها التصريف ، فالكلمة يتغير بناؤها فتدل على جديد ، كتب ، يكتب ، كاتب ، مكتوب ، كتاب ، اكتب . وما الى ذلك ، ويدخل فى هذا الصنف اللغات الهندية الاوربية وكذا اللغات السامية ومنها اللغة العربية وكذا الحامية ويلاحظ ان بعضا من هذه اللغات المتصرفة Inflected ما يضيف الى الكلمة مقطعا تصدر به الكلمة فيتغير معناها Prefix اى سابقة ، او مقطعا تذييل به الكلمة فيتغير معناها Suffix اى لاحقة او كاسحة وهذا من صفة اللغات اللاصقة ، لا « المتصرفة » ومعنى هذا ان اللغات قد لا تكون لاصقة خالصة او متصرفة خالصة ومثال اللغات المتصرفة التي مالت الى اللصق اللغة الانجليزية فنقول : Hope ومعناها « الرجا » ونقول Hopeful ومعناها « ملئ بالرجاء » ونقول Hopeless ومعناها « لا رجاء فيه » ونقول Sense ومعناها « معنى » ونقول Nonsense ومعناها « لا معنى له » وهلم جرا .

واللغات من حيث مزونة نظام ترتيب الكلمات وعدمه تنقسم الى ثلاثة اصناف :

1 - اللغات الحرة : وهي اللغات التي لا يخضع نظام ترتيب الكلمات فيها الى قواعد لازمة كالافريقية واللاتينية بل تحددها قوانين الاسلوب والمفاضلة بين اسلوب وآخر وتخصيص اسلوب

معين بمجال من القول لا يصح معه استعمال غير هذا الاسلوب او هذا الترتيب وعليه فمثل هذه اللغات لا تخضع لنظام لازم فى ترتيب الكلمات ، نأليف الكلام ، وانما يفاضل بين نظام ونظام من حيث البلاغة ، ويخصص نظام بمجال يختلف عما يخصص للمجال الاخر من دون ان تكون هناك قواعد لازمة .

2 - اللغات المستقرة : وهي اللغات التي تتبع فى ترتيب الكلمات لتأليف الكلام نظاما مستقرا كالانجليزية والفرنسية استقرارا يكاد يقرب من الجمود فليس للمتكلم باحدى هاتين اللغتين ان ينتقل بالكلمة من مكانها المعين فى الجملة . واللغات غير المعربة غالبا تنصف اكثر من اللغات المعربة بصفة الاستقرار فى نظام ترتيب الكلمات ليمكن تبين العلاقة والصلة بين الكلمة والتي تليها للفعل موضع وللفعول آخر وللفعول ثالث وهكذا .

3 - اللغات الوسط : وهي اللغات التي لا يكون نظام ترتيب الكلمات فيها حرا ، كما فى اللغة الافريقية واللاتينية ولا مقيدا ثابتا ، كما فى اللغة الانجليزية والفرنسية ومن هذه اللغات الوسط اللغة العربية اذ ان نظام ترتيب الكلمات فيها على ثلاثة اضرب ، احدها : ما عينه الواضع وحكم به على سبيل الوجوب فيعد مخالفة مخطئا ويخرج الكلام الخالي من مراعاته عن الاسلوب العربي كتأخير التمييز عن المميز ، والمضاف اليه عن المضاف ، ثانيهما : ما عينه الواضع ايضا ولكنه قضى به على وجه الاصاله واعتبار ما هو الاولى ولا تخرج العبارة بمخالفته عن حدود العربية كتقديم اسم من مصدر الفعل على اسم الذات الواقع عليها والبحث عن اسرار ما كان من قبيل هذين الضربين مثبتا فى مدارج علم النحو ، ثالثها : ما لا يقتضيه الوضع على التعيين وجعل امره دائرا على رعاية ما يناسب المقام وتعينه بحسب التراكيب المخصوصة موكول الى المعية المتكلم وحسن تصرفه كتقديم المفعول على الفعل لافادة اختصاصه به وعدم تعلقه بغيره والبحث فى هذا القسم ووجوه المناسبة متدرج فى موضوع علم البيان (24) .

ينطق الاحفاد بعض الاصوات بطريقة مخالفة لما فعل
اجدادهم واليوم نستطيع ضبط نطق الاصوات بواسطة
آلات مدققة مثل الحاكي Grammophone وماغنوفون .

وعلاوة على العوامل الطبيعية ، وجد عامل تاريخي
مؤثر فى النطق كاختلاط العناصر والشعوب بعضها
ببعض واذا حللنا اسباب اختلاف اللغات وصلنا : الى
نتائج طريفة فاللغات الهندية الآرية ذات الفروع
المتشعبة يختلف بعضها عن بعض الى حد يجعلها تبدو
لاول وهلة غريبة بعضها عن بعض .

فاللغة اليونانية القديمة على كراهيتها للحروف
السكنة المركبة واللغات الصقلية (الصلاوية) ذات
الحروف السكونية المزروجة والمثلثة منحدره من
نفس الاصوات الآرية .

واللغة الطاليانية ذات النغمات الموسيقية واللغة
الابانية المحشوة ابتنا عمومة ومن اليسير علينا
كشف هذه العلاقة فى كلمتي Inpret الابانية
و Imperafor اللاتينية .

وما هو السبب الذي جعل تلك اللغات تسير فى
هذه الطرق المتباينة ؟ اذا عرفنا الظروف المادية التي
كانت تعيش فيها الشعوب القديمة استطعنا تفسير
هذه الظاهرة .

فالاكتشافات الفنية الآلية ساعدت الإنسانية
فانقذتها من المضار الناشئة من الطبيعة . لقد كانت
الجماعات البدائية اكثر تعرضا لقوى الطبيعة من نحن
عليه حيث نتمتع بالتدفئة المكيفة والمذياع والطيارة
النافثة الى آخره .

واللغات التي انفصلت عن اصلها المشترك فى
العصور القديمة ما لبثت ان منيت بتغييرات اساسية
نشأت عنها لهجات متباينة ، لقد اصدر «دانيال ويست»
فى معجمه العظيم منذ أكثر من قرن حكمه على اللغة
الانجليزية فتنبا أن اللغة الانجليزية فى امريكا ستفصل
عن أمها - أى اللغة الانجليزية القسح - الى حد ان
الانجليز والامريكيين سيكتبون ويتكلمون لغتين
مختلفتين فلا يستطيعون التفاهم .

بيد ان هذا التنبؤ كان مخطئا ؟ ففي خلال ذلك
اخترع البخار والكهرباء والاذاعة وتقدمت الصحافة
فربطت بميثاق من حديد ، ضفتي المحيط الاطلسي
وما زال الشعبان متفاهمين كسابق عهدهما .

وقديما كان مسلك اللسانيات ، تشبيه الكلمات
مع الاخرى يلاحظ بلا نظر الى السلسلة التاريخية
واسباب التطور التي وقعت فى مضي الزمن وغيرت
مظاهر اللغات . لكن العلم الجديد يعتبر تطور الاصوات
واسبابه بين اللغات المختلفة لأجل تقربها وتصنيفها .
التشابه الظاهري وحده لا يدل على قرابة اللغات فقط ،
انا اضرب مثلا واحدا واعتقد انه يقنع فى هذا الصدد
والكلمة الفرنسية Larmes الدموع ، والكلمة الالمانية
Zahre لا تتشابهان مع انهما من اصل واحد وتطورت
الاغريقية واللاتينية Dakinuma عبر القوطية
والالمانية القديمة الى جديدها ، وعلى هذا المسلك
ضبط اللغويون أسر اللغات الى الآرية واورال تارة
والى السامية تارة اخرى .

واللغات الآرية منحدره اصلا من اللغة الهندية
السانسكريتية ولذلك تسمى احيانا الهندية الآرية
ولهذه العائلة ميزة خاصة جديرة بالملاحظة الا وهي
فقرها بالافعال .

وقد يبدو هذا الراي لاول وهلة غير منطقي
فيتساءل البعض كيف تستطيع تلك اللغات الآرية أن
تعبر عن جميع اساليب الافعال ، والجواب بانها
تستطيع ذلك ولكن باستعمال حروف مستقلة لكل منها
صوت وتكوين مختلف تربط بعضها وساطة مقاطع
شتى تكتب امام اصل الفعل وقد امتازت اللغتان
اليونانية واللاتينية القديمتان بمعين لا ينضب من
الكلمات ، اشتقت منها جميع المصطلحات العلمية فى
الحياة الحديثة مع فقرهما فى الافعال وكيف حدث
ذلك ؟ لنورد الآن مثلا :

فكلمة نفخ باللاتينية Spirare قد اضيف
امامها مقطع Con ، ومعناها يساوي الحرف « مع »
فاصبحت Conspirare نفخ معه يعنى : مؤامرة
واذا اضيف امامها مقطع In ومعناها يساوي
الحرف « فى » اصبحت Inspirare ومعناها
« الهم » . واذا اضيف امامها مقطع Ad يعنى « الى »
اصبحت Adspirare يعنى طمح . هكذا يمكن
استنباط كلمات كثيرة من اصل واحد واللغات المنحدرة
من اللاتينية : الطاليانية والفرنسية والاسبانية واخرى
ورثت هذا النظام اللغوي (25) .

نسأل الان : لم كانت اسباب اختلاف اللغات
المنحدرة من اصل واحد ، وجوابنا انه يرجع الى تغيير
البيئة مع عوامل طبيعية « فيزولوجية » وكثيرا ما

ط - اليونانية . هذه هي شجرة اللغات
الاوربية الهندية .

(6) اليابان : كوريا .

(7) الاورال وما اليها .

(8) منغوليا .

(9) الصين وتبت «الهند الصينية» وهي : الصينية،
تيلاندية ، برماوية ، وما اليها (27) .

هذه اصول لغات العالم وهي تعطي فكرة عامة
عن عائلات لغات الارض المختلفة وما تفرع منها ،
والفرع الواحد يحمل لغات متشابهات .

ولا شك ان جذورا نشأت منها اللغات ، لكن
التاريخ طواها وهي اليوم ترقد في اعماقه يعجز
الانسان عن استشفافها وليس للانسان الا الحاضر من
هذه اللغات وهذه اللغات الحاضرة انما هي انسال تلك
اللغات البعيدة الغابرة والولد كثيرا ما يحمل من
اجداده سمات تدل عليهم مهما طال الزمن ، بل كل
الكائنات الحية تحمل الخصائص الذاتية لابائها تبعاً
لقانون الوراثة مع موافقة قانون التطور العام كذلك
اللغات تطورت مع الزمن تبعاً للقانون العام ، الا ان
الخصائص الوراثية تدل على الاصل او ترشد اليه .

واللغة تراث اجتماعي يرثه الجيل اللاحق من
الجيل السابق فهي تراث اجتماعي تقليدي مورث يرثه
ويتطبع عليه ويحاول ان يسير على وفقه كل متكلم لاية
لغة او لهجة .

ولما كانت اللغات هي : مجموعة من الرموز
الاصطلاحية من حيث المفردات ومجموعة من القواعد
النحوية الاتفاقية من حيث ضبط تلك المفردات
ومجموعة من النظم الاتفاقية التقليدية ايضا - من
حيث تأليف وتركيب تلك المفردات ، فهي لهذا لا تخضع
لمنطق عقلي عام . لانها اصطلاحية ، اتفاقية ، تقليدية،
موروثة او بتعبير آخر : ان اللغة من الامور الاعتبارية
والامور الاعتبارية لا يشترط فيها ان تكون عامة بين
الناس جميعاً الا اذا اتفقوا على ما هو معتبر، اما اذا فقد
عنصر الاتفاق اختلف الناس فيما هو معتبر .

وحيث ان اللغة من الامور الاصطلاحية الاتفاقية
التقليدية غير المتفق عليها بين الناس لهذا اختلفت
اللغات ، فكان لكل لغة مفرداتها الخاصة بها ، وقواعدها
ونظمها ، واللغة لشدة التأثير بها والتطبع عليها تبدو

نعم ان بينهما بعض الفروق في النطق والاسلوب
لكنهما نتيجة التطور التاريخي . ويمكن ان نفرض انه
لولا المخترعات الآلية لانفصلت امريكا عن انجلترا
قبل التاريخ المعروف (26) .

واذا اردنا ان نعرف اصول اللغات وهل هي من
اصل واحد ام من اصول متعددة وجدنا ذلك في منتهى
الصعوبة ، فالعلم لم يكشف الآن اصول اللغات الاولى ولم
يعرف اي الاصول من اللغات التي توصل اليها اصل
الا انه مما لا يسوغ انكاره ان العلم لم يعرف الكلمة
الاخيرة في هذا الموضوع ولعله يأتي بجديد يوصل
الى قديم ، ممتدة جذوره في الماضي الحقيق ، ولغات
العالم التي هي من اصول غير معروفة نذكرها فيما يلي:

(1) السامية وفروعها وهي : العربية والحبشية
والحامية والعبرانية والبابلية .

(2) الملای والبولينيز

(3) الدرافيدية

(4) البنتو

(5) الاوربية الهندية وهذه تتفرع الى :

ا - الايرانية الهندية وهي : الافغانية الاردو،
الهندستانية ، البنغالية ، الكردية -
السيلاية ، الفارسية ، السنسكريت .

ب - السلتية وهي : الويلزية ، الارلندية ،
البريتونية .

ج - الالبانية .

د - الجرمانية التيتونية وهي : الدنمركية
الانجليزية ، والالمانية ، السودية ،
الايسلندية ، النرويجية .

هـ - البلطيك : وهي : اللثوانية والليتية .

و - السلافية وهي : البولندية ، والروسية،
البلغارية ، التشيكية ، السلوفاك ،
السلوفين .

ز - الارمنية .

ح - ا - اللاتينية : ب - الايطالية الرومانية
وهي : الرومانية البرتغالية ، الاسبانية،
الفرنسية ، الطليانية .

لتكلمها وكأنها من الأمور الطبيعية . ويبدو ما يخالفها شاذاً غريباً لا يقبلونه إلا في حدود معينة (28) .

النمو والتطور :

حياة الإنسان لا تستقر على حال : علومه تتطور وأفكاره تتسع ، وحضارته تتقدم ، وحياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي الأخرى تتطور وتتقدم ، وهذا يعني أنه في حياة الإنسان الجديد من المعاني التي تتطلب وضع الفاظ لها ، لهذا يلجأ الإنسان إلى لفته ، بمفرداتها وقواعدها ، يستعين بها يضع لهذه المعاني الفاظاً أو ينقل الفاظاً من معانيها التي وضعت لها إلى هذه المعاني الجديدة لتدل عليها فإن لم يجد الإنسان في لفته ما يسعفه لجأ إلى الاقتراض من لغات أخرى ، وقد يصقل ما يقترض بمصقل لفته لينتظم فيها وكأنه منها ، ولا يقتصر الأمر على الألفاظ بل يتعداها إلى الأساليب فهي الأخرى تنمو وتتطور . فإذا بأساليب لا تعرفها اللغة في زمانها السابق تدخل في زمان لاحق كل ذلك لأن حياة الإنسان تنمو وتتطور ، واللغة أداة وسيلة فلا بد لها من أن تسير تطور الإنسان والأما مات لان حياتها بوفائها .

والذي يرجع منا إلى صورته وهو طفل وصورته وهو شيخ طاعن في السن وصورته وهو شاب أو صبي أو كهل يرى التغير والتبدل الذي أصاب كيانه واضحاً فيما تنطق به الصور ولكن الإنسان لا يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل بل يلحظ نفسه وهو في يومه ويعلق في ذهنه عن أمسه بعضه لا كله واللغات شأنها شأن الإنسان ، فهي تتطور وتتغير وتبدل وكل هذا يحدث في البنية اللغوية في الأمس الغابر واليوم المائل .

وعمر اللغة لا يقاس بعمر الإنسان ، إذ منها ما بين مولدها وعصرنا المئات من السنين فنصفها بأنها حديثة وما هي بالحديثة . وأخرى ما بين مولدها وعصرنا الألوف من السنين ونصفها بأنها قديمة وما هي بالقديمة ، لاننا إذا رجعنا إلى أصولها أو إلى أصل الأصول كان عمر اللغة المئات من آلاف السنين بل الملايين منها ، فهل يمكن أن يلحظ هذا النمو والتطور والتغير والتبدل في هذا الامتداد الزماني ؟ الحقيقة لا ، اما لماذا ؟ فالاسباب :

ان اللغة الأم لم تخلف لنا الآثار ما يدل عليها وبتطور الإنسان تطورت لفته إلى لغات وكان التطور

تدريجياً . فنسي الإنسان أمس لفته وعاش حاضرها فانقرض ما انقرض وعفى الزمان على ما انقرض فنسيته الأجيال ، أما بالنسبة لأصول لغات عالمنا الحديث فالتى ولدتها أم وكانت ولادتها حديثة . عرف أصلها أي أمها كاللغات المولودة من اللاتينية . أما ما كانت ولادتها قديمة ، فقد نسيت أمها . ومن اللغات ما دونت مفرداتها وقواعدها ونظمها اللغوية في الأسفار . ومنها ما خلف أمها آثاراً فأمكن أن نتبين بعض - لا كل - صور تطورها وتغيرها وتبدلها . ومنها ما لم يدون في الأسفار ولم يخلف أمها الآثار . فلا تعرف عنها إلا صورتها الحاضرة أن لم تكن قد انقرضت . ونعود إلى لغات العالم التي تحتفظ بصور تغيرها وتبدلها وتطورها ونسأل هل تعطي هذه الصور واقعاً يطابق واقع اللغة وهي تتطور وتبدل في الامتداد الزماني لهذا التطور والتبدل ، الحقيقة لا : لأن هذه الصور نسبة تماماً كصورة الشيء لا تعني أنها حقيقة الشيء بكل كيانه ومقوماته وصفاته فكم من الألفاظ بادت . وكم من الأساليب عفى عليها الزمن . وكم من القواعد والنظم لم تصل إليها أجهزة المصور اللغوي فانساه الزمن .

وسؤال آخر يقفز إلى الذهن ويتطلب الجواب !

ما هي أسباب النمو والتطور والتبدل والتغير والانقراض في اللغات ؟ والجواب على ذلك اننا نجد أهم تلك الأسباب فيما يأتي :

- (1) النمو والتطور والتغير والتبدل في حياة الإنسان نفسه وهذا يدفعه إلى أن يضع لما يجد من جديد الفاظاً وأساليب ونظماً لغوية .
- (2) نقل الألفاظ الموضوعية للمعاني : فتناول الزمان يدعو إلى وضع الفاظ جديدة .
- (3) من المعاني ما يرتبط بعصر من العصور فإذا انقضى العصر لا تكون هذه المعاني من التراث الفكري والحضاري للجيل اللاحق فتهمل ثم تنسى باهمال الفاظها .
- (4) عدم وفاء اللغة بحاجة الإنسان إلى التعبير والتفاهم وحفظ ونقل وتخليد تراثه الفكري والعلمي والأدبي وأزاء ذلك يضطر الإنسان إلى أن يغير ويبدل أو يهجر لفته .
- (5) التحريف والتغير والتبدل في اللغة قد يستقر في دلالاته فيخرج الأصل حتى ينسى .

- (6) ولما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية اتفاقية غير مستقرة . لهذا قد تلد لفات أو لهجات ، وقد تستقر هذه اللغات أو اللهجات المولدة ، وتهجر اللغة الأم .
- (7) تسرب الدخيل والمولد الى اللغة مع عدم الحاجة اليهما وبمرور الزمان قد يتغلب الدخيل والمولد على الاصيل .
- (8) تجاوز الامم واختلاط الشعوب سبب من اسباب تطور اللغة ونموها فتتعرض اللغة من لفات الامم والشعوب ما تقتضيه مما ليس موجودا فيها .
- (9) تعرض الامم للغزوات والنكبات يعرض احيانا الامم المغلوبة الى فقدان لغتها عندما تفرض الامم الغالبة لغتها عليها ، او تتأثر لغة الامم المغلوبة بلغة الامم الغالبة .
- (10) انقراض الامم والشعوب يؤدي الى انقراض لغاتها لان اللغات ترتبط بمتكلميهها فاذا انقرضوا انقرضت .

(11) تشتت الامة والشعب يؤدي الى تاثر لغتها او لغته بلغات الامم المخالطة مما يؤدي الى مسخ لغة الامة المشتقة .

(12) بعض اللغات تمتاز بسهولة قواعدها ومرونة اساليبها وهذا قد يدفع بعض الامم الى هجر لغاتها اذا كانت قواعدها واساليبها شديدة التعقيد .

نواحي التطور والتغير اللغوي :

(1) التبدل الصوتي للحرف والكلمة : وذلك بأن يتغير صوت الحرف وعلى سبيل المثال حرف الجيم العربي يلفظ في لبنان وسوريا بصوت يختلف عنه في مصر وفيهما في العراق وكذلك في مصر نفسها حرف الجيم يلفظ في الصعيد بصوت يختلف عنه في القاهرة كذا حرف القاف والضاد ، او ان يتغير صوت الوحدة اللغوية .

(2) توسيع القاعدة اللغوية وذلك بأن يخضع اهل اللسان ما يقترضونه لقواعدهم اللغوية فيجرون عليه ما تجري عليه قاعدة لغتهم او توسيع القاعدة لتشمل الشاذ غير الخاضع لها .

(3) افتراض المفردات : وذلك حين تعجز قواعد اللغة عن الوفاء بوضع مفردات جديدة ولا يكون ذلك عن عجز وانما تكون المفردات الاجنبية قد استقرت بحيث لا يمكن احلال مفردات لغوية موضوعة بموجب القواعد اللغوية للغة .

(4) استعارة اساليب او تراكيب لا تعرفها اللغة : ومن امثلة ذلك في اللغة العربية ذر الرماد في العيون ، وعاش ستة عشر ربيعاً ، وضع المسألة على بساط البحث ، ولا جديد تحت الشمس وساد الامن في البلاد .

ومن امثلة ذلك ايضا الاصطلاحات الفنية والادارية : كهياة المحكمة وتشكيل المحاكم وانعقدت المحاكم ، وتعريف الرسوم ، واللاسلكي والانهاضي .

(5) تبدلات فرعية مختلفة : كالنقل والارتجال والاستعمال المجازي والنحت على غير قياس او سماع .

مقياس اللغة الحية :

من اللغات ما توصف بأنها : حية ، ومنها ما توصف بأنها : ميتة ، والميتة هي اللغة التي تشتت الشعب الذي يتكلمها فخالط امما وشعوبا مختلفة اللغات ، وكان ان مسخت لغة الشعب الميتة . وقد يطلق وصف الميتة على لغات تحتفظ بشخصيتها وذاتيتها ويتكلمها الملايين وهذا الذي هو يدعونا الى التساؤل . ما هي المقاييس التي يقاس بها كون اللغة حية او ميتة ؟

مما يجاب على هذا التساؤل : ان العلماء يختلفون في المقاييس التي تعتبر اللغة : لغة حية ولاختلاف اسباب : فمن العلماء من يعتبر المجتمع هو المقياس ، اللغة التي يرتضيها المجتمع بمفرداتها وقواعدها واساليبها ونظمها ، هي اللغة الحية ، لان اللغة كما عرفها بعض الباحثين ، هي وسيلة للتعبير والتفاهم . وليست غاية ، وللمجتمع ان يختار الوسيلة التي يرتضيها . ويضيف العلماء الى ما سبق شرطا آخر اذا توفر في اللغة بالاضافة الى ارتضاء المجتمع كانت اللغة لغة حية ، وهو ان تكون اللغة سهلة في قواعدها مرنة في اساليبها ونظمها ، وعلى اساس هذا المقياس للمجتمع ان يغير ويطور ويبدل في اللغة ما شاء الا في حدود ضيقة كأن يجري تأليف وترتيب

الكلمات وفق نظام ثابت ليؤدي الكلام للمؤلف منها
معناه العام .

ان الحياة تتطور وفي تطور مستمر واللغة ينبغي
لها ان تسير هذا وهي وسيلة للمجتمع ان يختار تلك
الوسيلة . ولا ينبغي لتلك الوسيلة ان تقيد المجتمع
وتقف حجر عثرة أمام تطوره واحتياجاته .

وبعض العلماء لا يعتبر المجتمع هو المقياس ، بل
يعتبر وفاء اللغة بحاجة الانسان الى التعبير والتفاهم
وحفظ ونقل وتخيل آثاره الادبية والعلمية والفكرية ،
والمعاصرة هو المقياس .

فاللغة التي تفي بذلك لغة حية ولا يسمح هؤلاء
العلماء لاممهم ان يغيروا ويبدلوا ويطوروا في لغتهم
كيفما شاءوا . بل لا بد ان يكون التطور والتغيير في
اللغة يجري على اساس من قواعدها واساليبها اللازمة
الاتباع . وهؤلاء العلماء يربطون بين لغتهم وبين تراثهم
العلمي والفكري والادبي والحضاري ، ويربطون بينها
وبين عقائدهم ونظمهم وبينها وبين مشاعرهم واهدافهم
في الحياة (29) .

نشأة اللغة الانسانية :

قد كثر القائلون والباحثون في نشأة اللغة
الانسانية اصلها منذ أقدم العصور - ولا زال علماء
اللغات يدرسون ويبحثون - ولقد عالجها فلاسفة
اليونان وعلماء اللغة العربية والاسلام ، واهتم بها
الباحثون من الاوربيين ومشى على آثارهم كثير ممن
أخذ عنهم وخاصة العرب منذ القرن التاسع حتى اليوم
وقد اختلفت وجهات النظر ونتج عن ذلك نظريات
كثيرة منها .

المذهب الاول :

ان اللغة الهام وتعليم من الله : بمعنى ان الواضع
للغات هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بلغها الانسان
بطريق الوحي والالهام او بابداع ذلك في طباعه .

(1) وذهب الى هذا الرأي جماعة من المفسرين
وقد حكى ابن جنى عن بعض المفسرين في تفسير
الآية « وعلم آدم الاسماء كلها » ان الله سبحانه علم
آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات العريية
والفارسية والسرانية والعبرانية والرومية وغير ذلك

من سائر اللغات فكان آدم وولده يتكلمون بهائم ان
ولده تفرقوا وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت
عليه واضمحلت عما سواها لبعدهم عنها واذا كان
الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه باعتقاده
والانطواء على القول به (30) .

وعن ابن عباس انه كان يقول : علمه الاسماء
كلها ، وهي هذه الاسماء التي يتعارفها الناس من دابة
وأرض وسهل وجبل وجمل وحمار واشباه ذلك من
الامم وغيرها . وعن مجاهد انه قال : علمه اسم كل
شيء . وقال غيره : انما علمه أسماء الملائكة . وقال
آخرون : علمه أسماء ذريته أجمعين .

(2) ومن ذهب هذا المذهب : الاصوليون ، قال
الأمدي حاكيا آراء العلماء في ذلك : اختلف الاصوليون
فذهب الاشعري واهل الظاهر وجماعة من الفقهاء الى
ان الواضع هو الله ووضع لنا متلقى من جهة التوقيف
اما بالوحى او بأن يخلق الله الاصوات والحروف
ويسمعا لواحد او لجماعة ويخلق له اولهم : العلم
الضروري بأنها قصدت للدلالة على المعاني محتجين
على ذلك بآيات منها قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء
كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء
ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما
علمتنا » وهذا يدل على ان آدم ، والملائكة لا يعلمون
الا بتعليم الله تعالى ، ومنها قوله تعالى : « اقرأ باسم
ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك
الاکرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »
واللغات داخلة في هذه المعلومات ومنها قوله تعالى :
« ان هي الا أسماء سميتوها انتم وآباءكم ، ما أنزل الله
بها من سلطان » ذمهم على تسمية بعض الاشياء من غير
توقيف ، وقوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات
والارض واختلاف السنتكم » . المراد به اللغات لا
نفس اختلاف هيئات الجوارح من الالسن لان اختلاف
اللغات ابلغ في مقصود الآية (31) .

(3) وذهب طائفة من علماء اللغة الى مثل ما ذهب اليه
المفسرون والاصوليون حكى ابن جنى في الخصائص
عن استاذه ابي علي الفارسي المتوفى سنة 377 هـ قال :
ان ابا علي رحمه الله قال لي يوما هي من عند الله
واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » (32) .

وايد ابن جنى هذا الرأي فقد جاء عنه في
الخصائص : واعلم فيما بعد انني على تقادم الوقت
دائم التنقير والبحث عن هذا الوضع فأجد الدواعي
والخوارج قوية التجاذب لي مختلفة جهات التناول على

فكري وذلك انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والركة ما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر ، فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه واتقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقديره منه ، ولطف ما اسعدوا به وانضاف الى ذلك ، وأرد الاخبار الماثورة بأنها من عند الله عز وجل فقوى في نفسي اعتقاد كونها من الله سبحانه وانها وحي (33) .

(4) وقال أبو الحسين أحمد بن فارس : ان لغة العرب توقيف واستدل بالآية : « وعلم آدم الاسماء كلها » وتفسير ابن عباس ومجاهد وغيرهما . ولكن أبو الحسين بعد ان أطلق كلامه هذا الاطلاق ، رجح فخصص ما عم فقال : ولعل ظانا يظن ان اللغة التي دللنا على انها توقيف انما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد ، وليس الامر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج اليه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم عليه السلام من الانبياء نبيا نبيا ، ما شاء ان يعلمه حتى انتهى الامر الى نبينا محمد صلى الله عليه وآله واصحابه وسلم - فاتاه الله من ذلك ما لم يؤته احدا من قبله (34) .

ثم قال فان تعمل لذلك اليوم متعمل ، وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ، ولقد بلغنا عن أبي الاسود ان امرا كلمه ببعض ما أنكره أبو الاسود ، فسأله أبو الاسود عنه فقال هذه لغة لم تبلغك . فقال أبو الاسود يا ابن اخي لك فيما لم يبلغني .

وجاء انه لم يبلغنا ان قوما من العرب في زمان يقارب زماننا اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه (35) .

وقد كان في الصحابة رضى الله تعالى عنهم وهم البلغاء والفصحاء من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به وما علمناهم اصطلاحوا على اختراع لغة او احداث لفظة لم تتقدمهم .

قال الاستاذ مصطفى السقا بعد ان اورد اقوال اصحاب المذهب السابق : والذي يلوح لي ان اكثر ما استدلل به اصحاب هذا المذهب ادلة دينية مع ان البحث نظري عقلي لا ديني فينبغي ان يستبعد منه الاستدلال بالآيات والاحاديث ونحوها . على ان الآية الاولى التي هي معتمد القوم في الاستدلال ليست نصا

في الموضوع وانما هي من قبيل الظاهر الذي يحتمل اكثر من وجه ، فقد يمكن تأويلها : بان الله اقدر آدم على ان واضع عليها . قال ابن جنى في الخصائص بعد ان اورد الآية : وهذا لا يتناول موضع الخلاف وذلك انه قد يجوز ان يكون تأويله : اقدر آدم على ان واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة ، فاذا كان ذلك محتملا وغير مستنكر سقط الاستدلال به وقد كان أبو علي رحمه الله ايضا قال به في بعض كلامه وليس يعني ذلك من الادلة التي استدلو بها غير كلام ابن جنى وخلاصته انه رأى في احكام اللغة ودقة تنظيمها ما جعله يعتقد ان ذلك الاحكام لا يتأتى من غير الله . وهذا الدليل ان لم يكن صريحا في الدين ، فهو مقنع بقناع الدين ، فان كثيرا من اعمال القدماء كالاهرام وغيرها آية في دقة الصنع فهل تقول ان صانعها هو الله من اجل اتقانها ، على ان ابن جنى نفسه بعد ان ذكر كلامه الذي سقناه لم يلبث ان شمر بما فيه من ضعف فاستدرك على نفسه بقوله : كذلك لا ننكر ان يكون الله قد خلق من قبلنا وان بعد مداه عنا ، من هم الطف منا اذهانا واسرع خواطر واجرا جنانا فاقف بين الخلتين حسيزا واكثرهما فانكفئ مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف باحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها ، قال الاستاذ مصطفى السقا : اما صدر كلام أبي الحسين أحمد بن فارس فهو تقليد لائمة الدين وقد كان الشيخ محافظا شديد المحافظة ، وقد عدل كلامه فضيق دائرة الدغوى ، واما انكاره على العرب انهم اجمعوا على تسمية شيء من الاشياء ، مصطلحين عليه فيكفي في رده ما نقله غير واحد من ائمة اللغويين من ان رؤية العجاج وجريرا وابن احمر الباهلي ، انعرد كل منهم بالفاظ لم يقلها غيره من العرب وانهم كانوا يرتجلون اللغة احيانا . فهذا دليل على استمرار نهر اللغة حتى العصر الاموي والى انتضاء عصور الفصاحة العربية قبل ان تسيل سيول العجمة وتفسد السلائق باختلاط العرب بغيرهم الاختلاط الاكبر في العصر العباسي وليست المواضع والاصطلاح والتواطؤ الذي يريده القائلون به الا ان يخرع اللفظ مخترع فيقبله منه الناس ويستعملوه .

وخلاصة ما تقدم : ان القائلين بان اصل اللغة توقيف وحي يعوزهم الدليل العلمي لا الديني ولم نجد هذا الدليل فيما بين أيديهم من فروض واحتمالات .

واستأذنه أبو علي الفارسي منهم كما ذكر السيوطي في كتاب المزهر .

1 - حكى أبو الحسن علي بن محمد الأمدي في كتاب الأحكام أن البهشية وجماعة من المتكلمين ذهبوا إلى أن ذلك من وضع أهل اللغات واصطلاحهم وأن واحدا أو جماعة انبعث داعيته أو داعيتهم إلى وضع هذه الألفاظ بأزاء معانيها ، ثم حصل تعريف الباقيين بالإشارة والتكرار كما يفعل الوالد بالولد الرضيع وكما يعرف الأخرس ما في ضميره بالإشارة والتكرار مرة بعد أخرى محتجين على ذلك بقوله تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وهذا دليل على تقدم اللغة على البعثة والتوقيف (40) .

2 - وزاد ابن جني على هذا المذهب توضيحا بقوله : ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضع وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد سعة ولفظا ، فإذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز عن غيره وليفنى بذكره عن أحضاره إلى مرآة العين فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف أحضاره بلبوغ الغرض في إبانة حالة بل قد يحتاج في كثير من الأحوال إلى ذكر ما لا يمكن أحضاره ، ولا ادناؤه كاللغاني ، وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد كيف يكون ذلك لو جاز وغير هذا مما هو جاز في الاستحالة والبعد مجرأ . فكانهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومئوا إليه وقالوا : « إنسان إنسان إنسان » فأبى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق وأن أرادوا سعة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد عين رأس قدم أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معناها وهلم جرا ، فيما سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف ثم لك بعد ذلك أن تنقل هذه المواضع إلى غيرها فتقول الذي إنسان فليجمل مكانه مرد والذي اسمه : رأس فليجمل مكانه سر . وعلى هذا بقية الكلام . وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوقعت المواضع عليها لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرهما . وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صناعتهم من الأسماء كالنجارة والصانغ والحائك والبناء وكذلك الملاح ، قالوا : ولكن لا بد لأولها من أن يكون متواضعا بالمشاهدة والإيماء (41) .

وعلى ذلك اختلفت أقلام ذوي اللغات ، كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في

وقد ذهب هذا المذهب من اليونانيين قديما الفيلسوف « هيراقليط » ومن الأدبيين المحدثين طائفة على رأسهم الاب « لامي » في كتابه « فن الكلام » ويستند إلى نص الفقرتين 19 ، 20 من الإصحاح الثاني من سفر التكوين وهما : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول ، وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول »

وهذا الدليل فوق أنه دليل ديني ليس فيه شيء من الاستدلال على أصل الدعوى وقد بان من هذا ومما تقدم أن هذا المذهب مجرد دعوى لا سند لها غير الأدلة الثقيلة التي ليست نصا في الموضوع (37) .

ولكن بعض العلماء توصل إلى دليل عقلي ينهض قويا ليدعم الأدلة الثقيلة وهذا الدليل أن الإنسان الأول لما كان نبيا - فهو لا بد له ، لكي يتفهم ما يوحى إليه ولإبلاغ رسالته من لغة يستطيع بها تفهم وإبلاغ رسالته ، ولا تعذر عليه التبليغ وتفهم ما يوحى ، فאלله سبحانه لما خلق أبا البشر وأصل الخليقة آدم عليه السلام وأسكنه وزوجته الجنة ، وأوحى إليه هو وزوجه أن يأكلا من الجنة حيث شاءا - وأن لا يقربا شجرة معينة وغير ذلك مما خاطبهم به ، فلا بد من غير شك أنه علمهم معاني ما خاطبهما به ، وما أوحى به إليهما بل الظاهر أنه سبحانه علمهما ما يتخاطبا به فيما بينهما أو مع الملائكة وذلك لاتمام النعمة عليهما في الجنة .

نعم من الجائز أن الله أودع في آدم وذريته الأولين قوة توسيع اللغة الأصلية ثم تفرعت منها لغات بعد ذلك حسب التكتلات البشرية في أقطار المعمورة فكان لكل كتلة منهم لغتها ولهجتها ونغمتها الخاصة (38)

المذهب الثاني :

أن اللغة تواطؤ واصطلاح : وخلاصة هذا المذهب أن الواضع للغة هو الإنسان وأن وضعه لها كان على مراحل . ولقد ذهب إلى هذا المذهب أكثر أهل النظر كما قال ابن جني في الخصائص : هذا موضع محوج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن اللغة إنما هي تواضع واصطلاح لا وحي ولا توقيف (39)

ولعل المراد بأهل النظر في كلام ابن جني المتكلمون عامة والمعتزلة منهم خاصة ، وكان ابن جني

المواضعات . وتوسط قوم بين المذهبين فذهب أبو اسحاق الاسفرايني . الى ان القدر الذي يدعو به الانسان غيره الى التواضع بالتوقيف ، والا فلو كان بالاصطلاح ، فالاصطلاح عليه متوقف على ما يدعوه به الانسان غيره الى الاصطلاح على ذلك الامر . فان كان بالاصطلاح لزم التسلسل وهو ممتنع ، فلم يبق غير التوقيف . وجوز حصول ما عدا ذلك بكل واحد من الطريقتين (42) .

وخلاصة الرد على أصحاب هذا المذهب : في ان قولهم : باجتماع حكيمين أو ثلاثة فصاعدا ليضعوا لكل شيء سمة ولفظا ليس الا مجرد خيال وحس وظن لا يغني عن الحق شيئا ، ذلك الى ان القول بأن الانسان وضع من اول الامر كلمات ذات مقاطع مركبة يجافى طبائع الاشياء اذ ان التدرج والترقي من البسيط الى المركب هو القانون الملحوظ في نشأة الظواهر الاجتماعية التي من أهمها ظاهرة اللغة كما يلاحظ ذلك في نشأة لغة الطفل وتدرجها شيئا فشيئا .

واما الاستدلال بالآية « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » فليس فيه دليل لانه يجوز ان يكون التوقيف الذي قبل التواضع بالوحي من غير واسطة اللغة ، على اننا نقول ما قلناه آنفا ان الاستدلال بالنصوص الدينية في مقام البحث العلمي لا يجوز ، ولذلك كله توقف جماعة من العلماء عن القطع بأحد المذهبين فذهب القاضي : أبو بكر الباقلاني وغيره من أهل التحقيق ، الى ان كل واحد من هذه المذاهب ممكن بحيث لو فرض وقوعه ، لم يلزم عنه محال لذاته واما وقوع البعض دون البعض فليس عليه دليل قاطع والظنون متعارضة يمتنع معها المصير الى التعيين - ولذلك ايضا قال الامدي : والحق ان يقال ان كان المطلوب في هذه المسألة يقين الوقوع لبعض هذه المذاهب ، فالحق ما قاله أبو بكر الباقلاني اذ لا يقين من شيء منها (43) .

المذهب الثالث :

ان اللغة نشأت من الاصوات ويرى هذا العلماء الأوربيون المحدثون ، وسبق اليه علماء اللغة العربية قال ابن جني في الخصائص : وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات . كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي - صوت

تيس الظباء عند السفاد - ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عند ذلك فيما بعد (44) . ويقول ابن جني : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل (45) .

ويرى الأب انستاس ماري الكرملتي نفس هذا الرأي ويقول : الكلم وضعت في اول امرها على هجاء واحد متحرك فساكن محاكاة الاصوات الطبيعية (46) .

وهذا المذهب قال به جماعة من المتأخرين مثل : « ادم سميث » و « دوكنر ستيورت » ونقل عنهم ان الانسان كان يعبر عما في ضميره بالاشارات والحركات حتى تكاثرت فجعل يحكي الاصوات التي يسمعها فكان اذا اراد ان يشير الى الغراب قال : غاق ، ولما وجد حكاية الاصوات هذه تفي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصوات اللغة ، ثم طرا عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل ، فتألفت سائر الفاظ اللغة عن كل خاطر يخطر في النفس (47) .

وبمقتضى هذا المذهب كان الانسان اذا اراد استحضار معنى الحصان عبر عنه بصهيله « حم حم » او معنى الكلب عبر عنه بمحاكاة نباحه « عو عو » وهكذا . واذا اراد الدلالة على معنى قطع الغصن او قصفه نطق بالصوت « قط او قضى » او معنى سقوط الحجر على الارض نطق بالصوت « طق » لما بين هذه الاصوات ومعانيها من المناسبة . وقد قال الخليل : كأنهم توهوا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا : « صر » وتوهوا في صوت البازي تقطيعا فقالوا : « صر صر » ومن الطبيعي ان يكون التفاهم في هذا الطور الاول بكلمات مقطعة لا بجمل وان هذه الكلمات كانت حكاية لاصوات الاشياء او حكاية أفعال اما الحرف التي تربط بين الكلمات في الجمل ، فلم تكن نشأت بعد (48) .

فانت ترى ان اللغة نشأت بمحاكاة الانسان لاصوات الطبيعة وكانت المحاكاة في اول امرها عضوية . اي لم يقصد بالاصوات الحكاية التعبير عن المعاني المحكي عنها بها للاتصال بالغير ، ان الوظيفة الاجتماعية للغة لم تبرز في اول الامر . ثم وجد الانسان ان هذه الوسيلة مثمرة ونافعة وسهلة في دلالتها على المعاني ، لهذا أصبح يطلق على الاشياء اصواتا هي حكاية لاصواتها الصادرة عنها للدلالة عليها وللاتصال بالغير ، فمعنى هذا ان استعمال الانسان لاصوات الحكاية أصبح استعمالا لا شعوريا اراديا هادفا ، وهنا يبرز العنصر الاجتماعي للغة ثم طرا على الاصوات الحكاية الدالة : التركيب والنحت والحذف

ووسوسة النقود والحلى وصرير الابواب وصلصلة
الاجراس وما أشبه ذلك .

ويلحق بهذا القسم الاصوات البدائية التي
اخترعها الانسان للدعاء الحيوان او لجزره ، وتنقسم
الاصوات من حيث صفاتها الى اصوات ساذجة وهي
التي تمتد في استطالة بدون تقطيع كصوت زمارة
الانذار عند انتهاء الفارات وكصفير الحيوان او الانسان
من غير ترجيع ولا تكرير . وهذا النوع ليس موضوع
بحث اللغويين ، والى اصوات مقطعة كالحروف التي
يلفظها الانسان بالاعتماد على المقاطع والمخارج
وكالاصوات الطبيعية التي سبقت الإشارة إليها فانها
وان صدرت عن أشياء لا مقاطع لها كمقاطع الانسان فقد
تمكن حكايتها بالانفاظ الانسانية المؤلفة من الحروف ،
فلما أشبهت الاصوات اللغوية الانسانية ذات المقاطع
والحروف جرت عليها احكامها (50) .

وهناك من العلماء من يقرر أن اصل اللغة الانفعالية
للانسان ، التي كان يطلقها الانسان في ظروف حياته
البدائية وهي تختلف باختلاف حالاته النفسية
والجسمية وباختلاف الظروف المحيطة به . وكانت
تلك الاصوات في بدايتها عفوية لم يقصد منها الاتصال
بالغير ، بل هي مجرد اصوات تصدر عنه كتعبير عن
حالة من حالاته الانفعالية ولما ارتبطت هذه الاصوات
بتلك الحالات الانفعالية نتيجة تكرارها ، عند تعرضه
لها انتبه الى اهمية هذه الاصوات وفائدتها ، فأخذ
يستعملها للاتصال بالغير وبهذا أصبح الصوت يخدم
غرضا اجتماعيا وكان أن وسع مجال الصوت في
الدلالة على الأشياء تدريجيا وهكذا نشأت اللغة (51) .

المذهب الرابع :

يقرر كثير من العلماء المحدثين أن اصل اللغة
يرجع الى جذور نفسية وفي هذا عدة نظريات :

(1) اصل اللغة رغبة الانسان في أن يرى الواقع
مرموزا اليه . وفي ذلك نجد الاستاذ سابر
يرى أن الحاجة الى التفاهم انشأت اللغة ، بل
Sapir وهو من المشتغلين بفلسفة اللغة لا
يرى أن منشأها رغبة الانسان في أن يرى الواقع
مرموزا اليه او معبرا عنه بالرموز ، ثم اكتشف
مصادفة أن ذلك خير وسيلة للتفاهم (52) .

(2) اصل اللغة التعبير عن الحالات الانفعالية .

والزيادة والقلب والابدال ، ليدل الانسان على معاني
جديدة باصوات متميزة . بعد أن التفت الى اهمية
وفائدة الرموز الصوتية في الدلالة على المعاني
الصوتية وغير الصوتية المادية وغير المادية ، وكان
هذا على مراحل . ثم ان التصرف في الاصوات
الحاكية بالكيفيات المتقدمة يختلف باختلاف البلاد
والقبائل والبيئات الاجتماعية ثم اقرت هذه الاصوات
المتصرف بها مع الزمن فبعد كثير منها عن اصله وهو
الصوت الذي حاكى به الانسان الاصوات الطبيعية
وهكذا نشأت اللغة (49) .

ويستدل أصحاب هذا المذهب على صحته :

(1) بأنه اقرب المذاهب الى البساطة التي تقتضيها
حياة الانسان البدائي وتقتضي التدرج والتطور
الذي تقتضي به طبائع الأشياء والذي يلحظ في
نشوء الظواهر الاجتماعية عامة .

(2) وبأنه توجد مناسبة ملحوظة بين الاصوات وما
تدل عليه من معنى وهذا امر ظاهر في لغات
الامم الاولية .

(3) وبأنه شبيه بنشأة لغة الطفل التي تتدرج من
الاصوات الساذجة المستطيلة الى الاصوات
المقطعة ثم يتدرج الى الكلمات ذات المقاطع
المركبة اذا كملت اعضاء النطق عنده .

ولا يرد على هذا المذهب من النقد ما ورد على
المذاهب الاخرى السابقة ولذلك كان اقرب المذاهب
الى العقل وان لم يوصل الى اليقين في نشأة اللغات
وقد ارتضاه ابن جني في كتابه الخصائص حين قال :
وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل .

والاصوات جمع صوت : وهو الجرس الذي
ينتقل بالهواء الى حاسة السمع . وتنقسم هذه
الاصوات بحسب المصدر الذي تنبعث عنه . الى
قسمين : الاول : الاصوات الطبيعية كصوت الريح او
الرعد او النار ، او جري المياه وانصبابها من علو الى
اسفل ، وكاصوات الحيوان والطيور والاصوات التي
تسمع من الانسان في احوال الانفعال كالانين والصراخ
والعويل وكاصوات الفرح والطرب ونحو ذلك .

والثاني : الاصوات غير الطبيعية كاصوات
الحركات والانفعال التي يلفظها الانسان واصوات
الالات والادوات التي يستعملها كازيمز الطائرات
وجمجمة الطواحين وصوت المنشار في الخشب

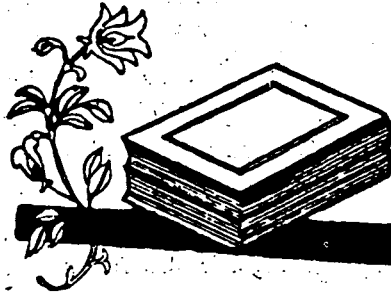
يمكن ان تحقق له فوائد كثيرة فانتبه لذلك وُكان ان
وسع من نطاقها وظواهرها لتخدم اغراضه التي يمكن
ان تؤديها .

المذهب الخامس :

الاصل الاجتماعي وخلاصته : ان اللغة نشأت
بظهور البذرة الاولى لتكون المجتمع وان الانسان كان
مضطرا لان يتفاهم مع الاخرين لاسباب ودوافع كثيرة
لهذا كان يطلق اصواتا في حالات مختلفة ثم اكتسبت
هذه الاصوات صفة التباين النسبي حتى اصبحت
لها دلالتها على معان معينة (54) . فاخذ يستعملها
للتعبير والاتصال بالآخرين لتحقيق غرض ما فنشأة
المجتمع هي سبب نشأة اللغة .

(3) اصل اللغة التعبير عن المعاني الكامنة وفي هذا
يقول « ماكسي » وهو من اشهر من قال بهذه النظرية
في القرن الماضي 1863 م « في الانسان قوة من
شأنها التعبير عما في ضميره بكلمات ملفوظة فكان
الفكر اول ما يجول في دماغه ، كانه يقرع تلك القوة
فتصوت بالفاظ يفهم الفكر منها . وهذه الالفاظ هي
اصول اللغة ثم تقلبت عليها اطوار التعبير والتركيب
فتألفت مفردات اللغة ولما تم الاستنباط درج عليها
الاستعمال ولم يبق لهذه القوة من حاجة فاهملت
وتضعفت ولم تعد تحس كما يضعف السمع والبصر
لقلة الاستعمال (53) .

من هذا يتضح ان اللغة انما نشأت بسبب عوامل
ودوافع نفسية بثة ثم وجد الانسان الاول ان اللغة



المصادر

- 1 — مجلة المعرفة — السنة الأولى ج 3 ، ص 11، مايو 1970 السعودية
- 2 — الخصائص لابن جني — ج 1 ، ص 31 ، طبعة الهلال بمصر 1331هـ
- 3 — مجلة النجف — السنة الثانية ج 6 ، ص 47 ، تموز 1968 العراق
- 4 — مجلة اللسان العربي — العدد 3 ، ص 54 ، المغرب 1385 هـ
- 5 — مجلة دعوة الحق — السنة 6 ، العدد 5 ، ص 38 المغرب 1382 هـ
- 6 — نفس المصدر — ص 39 — 40 .
- 7 — مجلة اللسان العربي — العدد 3 ، ص 55 .
- 8 — كتاب اللغة العربية لعبد العزيز عبد المجيد ج 1 ص 19-20 القاهرة
- 9 — مجلة اللسان العربي — العدد 3 ، ص 55 ، الرباط .
- 10 — مجلة المجلة — العدد 114 يونيه 1966 ، القاهرة .
- 11 — مجلة المجلة — العدد 114 ، مقال الدكتور تمام حسان .
- 12 — مجلة المنار للسيد رشيد رضا — المجلد 3 ، ص 303 ، القاهرة .
- 13 — مجلة منبر الاسلام — 1961 ، القاهرة .
- 14 — الخصائص لابن جني — ج 1 ، ص 31 ، القاهرة .
- 15 — اللهجات العربية للدكتور ابراهيم نجا — مطبعة السعادة بمصر .
- 16 — مجلة اللسان العربي — العدد الاول ، ص 28 ، المغرب .
- 17 — فلسفة اللغة العربية للدكتور عثمان أمين ، القاهرة .
- 18 — تراث الانسانية — العدد 3 ، المجلد الثاني ، القاهرة .
- 19 — الانيشد — مجموعة كتب هندية في الفقه الهندي ، ثقافة الهند .
- 20 — مجلة ثقافة الهند — المجلد 11 ، الهند .
- 21 — المصدر السابق .
- 22 — اشعات مجتمعات في اللغة والادب — عباس العقاد ، مصر .
- 23 — مجلة العربي — العدد 98 ، الكويت .
- 24 — مجلة النجف — العدد السادس ، ص 8 ، السنة الثانية ، العراق .
- 25 — مؤتمر مجمع اللغة الدورة 26 ، ص 18 ، القاهرة .
- 26 — نفس المصدر — ص 19 .
- 27 — العربي — العدد 98 ، الكويت .
- 28 — مجلة النجف — العدد 6 ، السنة الثانية ، ص 72 ، العراق .
- 29 — المصدر السابق ، ص 85 — 86 .
- 30 — الخصائص لابن جني ، ج 1 ، ص 39 — 40 ، القاهرة .
- 31 — الاحكام في اصول الاحكام للامدي ، ص 105 ، القاهرة .
- 32 — الخصائص لابن جني ، ج 1 ، ص 39 .
- 33 — المصدر السابق ، ص 45 .
- 34 — صاحبي في فقه اللغة ، ص 5 ، بيروت .
- 35 — المصدر السابق .
- 36 — نفس المصدر ، ص 7 .
- 37 — المعرفة السعودية — السنة الاولى — العدد 3 ، السعودية .
- 38 — مجلة النجف — العدد 6 ، ص 38 — 40 ، السنة الثانية ، العراق .
- 39 — الخصائص لابن جني ، ج 1 ، ص 39 .
- 40 — مجلة المعرفة — العدد 3 ، السنة الاولى ، السعودية .

41	— الخصائص لابن جنى ، ج 1 ، ص 41 - 42 .
42	— الاحكام للأملدي ، ج 1 ، ص 106 .
43	— المعرفة السعودية - السنة الاولى ، ج 3 .
44	— الخصائص لابن جنى ، ج 1 ، ص 44 - 45 .
45	— المصدر السابق ، ص 45 .
46	— دراسات في فقه اللغة ، ص 155 ، العراق .
47	— معجم متن اللغة ، ج 1 ، ص 18 .
48	— المعرفة السعودية - السنة الاولى - العدد 3 .
49	— النجف العراقية - العدد السادس ، ص 50 - 51 .
50	— المعرفة السعودية - السعودية .
51	— النجف - العدد السادس ، ص 51 ، العراق .
52	— اصول تدريس اللغة العربية - ص 10 ، العراق .
53	— معجم متن اللغة - ج 1 ، ص 19 ، العراق .
54	— النجف - العدد السادس ، ص 53 ، العراق .
55	— المزهر للسيوطي - ج 1 ، ص 36 ، القاهرة .